كيف يساهم التعاون متعدد التخصصات في بناء مفاهيم جديدة عن التراث؟

في قمة العُلا العالمية للآثار 2023، اجتمع المئات من علماء الآثار والخبراء متعددي التخصصات لمناقشة ماضي وحاضر ومستقبل علم الآثار، بما في ذلك التعمق في مناقشات حول الطريقة التي يمكن أن يساهم فيها بالتعاون مع الخبراء العاملين خارج نطاق هذا المجال، في خلق مساحات جديدة ومثرية للتراث بشكل عام وللآثار بشكل خاص، وذلك في عالم يواجه تحديات لا حصر لها.

في عالم يزداد ترابطًا ويعيش أفراده تحت ضغط المصالح، يمكن أن نشعر بأن مكانة علم الآثار تزداد تهميشًا، وقد يُضطر هذا العلم إلى الوقوع بين شقوق وصدوع التحضر والزراعة والتنمية الحديثة واعتبارات معاصرة أخرى.

يشكّل العثور على مكان لحفظ التراث في عالمنا تحديًا، وقد ناقش علماء الآثار والخبراء متعددو التخصصات خلال قمة العُلا العالمية للآثار في سنتها الأولى، والتي استضافتها العُلا في المملكة العربية السعودية؛ دراسة البقايا المادية للمجتمعات السابقة، كالمباني والمصنوعات اليدوية والبنية التحتية، وتعزيز فهمنا لأهميتها وقيمتها ضمن المجتمع المعاصر، بالإضافة إلى ذلك تمت مناقشة التأثيرات الجسدية والعاطفية التي يمكن أن يلحقها بهم ذلك العمل.

وضمن إطار عملنا، يمكننا التوصل إلى فهم أكثر شمولية لتاريخ البشرية وعلاقته بتحدياتنا الحالية. إن مفهوم "الحياة تحت الأنقاض" لا يشدّد فقط على الحاجة إلى دراسة وتفسير الحضارات القديمة، ولكنه يعترف أيضًا بدور علم الآثار في بناء أسس جديدة لمواجهة التحديات البيئية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية في وقتنا الحالي.

يمكن القول بأن هناك حاجة إلى إعطاء الأولوية للآثار التي لها قيمة أعلى من الناحية الملموسة، مثل تلك التي تقدم رؤى فريدة من نوعها عن الماضي، أو تقدم فوائد اقتصادية محتملة من خلال السياحة، أو أن يكون لها أهمية ثقافية، وترمز بصورة قوية وواضحة لمجتمع أو أمة معينة. طرح الخبراء في القمة هذه الأسئلة الملحة: كيف يمكن لعلم الآثار ضمان الحفاظ على أهميته بشكل دائم في العالم الحديث؟ كيف يمكن لعلماء الآثار أن يقرروا ما يجب تحديده من أولويات - وما يجب الحفاظ عليه - في عالم يعاني من قيود متزايدة على المساحات والأراضي والتمويل ومدى الاهتمام؟ وكيف يمكن للخبراء في هذا المجال التخفيف من الأثر الذي يلحقه عملهم بصحتهم؟

على مدار عدة أيام من النقاشات العميقة، برز موضوع أساسي ردًا على هذه التساؤلات: يمكن لوجهات نظر الأفراد من مختلف التخصصات أن تثري المحادثات المتعلقة بالآثار، وتساهم في توجيهنا وإرشادنا إلى كيفية تطور هذا المجال، كما يمكن أن تمنحنا مفهومًا جديدًا ورؤية ثاقبة حول المواقع الأثرية القديمة والتحف والتراث. يمكن للتعاون بين مختلف التخصصات أن يساعد في توجيه الاستفسارات المتعلقة بالآثار إلى مسارات لها معنى، كما يسمح لعلماء الآثار بالحصول على وجهات نظر مفيدة حول كيفية تحديد أولويات عملهم، والمساعدة في تخفيف الضغوط الجسدية والنفسية المفروضة على العاملين في هذا المجال.

في الواقع، أدرك العديد من المشاركين في القمة بأن علم الآثار يمتلك بالفعل قدرة فطرية على أن يكون متعدد التخصصات. كما أوضح باركر نانزر، الطالب في جامعة كالفن، قائلًا: "الجميع يعرف ما يفعله الطبيب، وما يفعله المحامي. يعتقد الجميع أن عالم الآثار هو إنديانا جونز. ولكن إذا استطعنا تغيير ذلك. موضحين أن ذلك العلم متعدد التخصصات: فالكيميائيون والجيولوجيون والفنانون والأدباء، وأي أمر آخر يمكن أن يكون جزءًا من علم الآثار، طالما كان لديك شغف بالقصة البشرية".

يحظى علم الآثار بتاريخ طويل من تبني مناهج متعددة التخصصات، ودمج التخصصات الأكاديمية المختلفة في أبحاثه ومنهجيته، حيث دُمجت أساليب ونظريات العلوم الطبيعية بالعلوم الاجتماعية والإنسانية. بالإضافة إلى التعاون في مجالات أخرى؛ مثل الأنثروبولوجيا والجيولوجيا والنقوش والتاريخ، ولا يزال علم الآثار مستمرًا بتوسيع نطاقه وقاعدته المعرفية لتوفير فهم أكثر شمولاً للماضي وأثره وارتباطه بالحاضر.

إن الفهم الذي حصده علم الآثار فيما يتعلق باستجابات الإنسان السابقة للتحديات الحديثة أدى إلى تكوين مفاهيم قيّمة تساهم في توجيه عمليات صنع القرار الحالية مع الأخذ بعين الاعتبار موضوع الاستدامة والحساسية الثقافية. من خلال هذا النهج متعدد التخصصات، يستكشف علم الآثار الحديث منهجيات ووجهات نظر جديدة، كما يجمع ويحلل بيانات جديدة، يتم دفعها إلى اتجاهات حديثة وذات معنى، وكلها تسمح للعالم برؤية التراث من خلال عدسة أوسع وأكثر شمولية.

تطبيق رؤى متعددة التخصصات على المواقع الأثرية والآثار

مع مرور الوقت، تطوّرت العمليات والتقنيات التي يستخدمها علماء الآثار عند التعامل بعناية مع المواقع التراثية والآثار. كان علم الآثار في الماضي يتبع خطوطًا إرشادية ثابتة ومألوفة تظهر بوضوح من خلال الأسئلة التي يطرحها، تنطبق هذه الملاحظة على العديد من المجالات الأكاديمية الأخرى، وهكذا يبقى الميل إلى الانعزال في العمل موجودًا، ويبقى محصورًا في المقام الأول بالخبراء ويُرى من منظورهم، وغالبًا ما يكونون متمسكين باتباع القيم والأنظمة التقليدية ضمن مجالهم، لكن حدوث التطورات البارزة في الأوساط الأكاديمية سببه السماح لأشخاص لديهم وجهات نظر جديدة ومختلفة بالمشاركة في المناقشة.

في علم الآثار -كما هو الحال في المجالات الأخرى- غالبًا ما تكون مسألة توحيد التخصصات المتعددة إلى حد كبير مسألة "من يقود؟"، وكما قال الدكتور شادريك تشيريكور من جامعة أكسفورد خلال محادثة في قمة العُلا العالمية للآثار السنوية الأولى: "من لديه القدرة على البحث في مجال التخصصات المتعددة؟ هل هو عالم الآثار؟ الممول؟ أو مالك الموقع؟". مما لا شك فيه أنه يجب على علماء الآثار في العالم الحديث تحقيق توازن دقيق ودبلوماسي بين المصالح المختلفة، خاصة عندما يتعلق الأمر بالمجتمعات المحلية. يقول الدكتور شيريكور: "أحد الأخطاء التي نرتكبها هو افتراض أن الناس في قراهم ومجتمعاتهم ينتظرون منا نحن علماء الآثار أن نكتشفهم؛ لذا فإن أول شيء يتعين علينا القيام به هو التعلم من هؤلاء الأشخاص، ثم نندمج مع ما لدينا ونحوّل ذلك إلى سياسة". إن تشجيع الملكية المحلية والمحافظة على المواقع التراثية هو خطوة مهمة لتمكين المزيد من العمل التعاوني.

في الأوساط الأكاديمية، ينخرط علماء الآثار بشكل متزايد في مجموعة واسعة من المساعي والتساؤلات حول التخصصات المتعددة، ومن خلال دمج التخصصات الأخرى في أعمال الآثار - سواء في الميدان أو في المختبر-، يكتسب علماء الآثار وجهات نظر جديدة مذهلة حول المواقع والآثار التي يُعتقد أنه تم استكشافها وتحليلها بالكامل. اليوم، وبدلًا من العمل بشكل انفرادي، يتعاون الأكاديميون من مختلف المجالات والخلفيات لخلق فرص استثنائية للتعاون، لذا يرجّح أن تكون النتائج غنية ومفيدة بشكل متميّز.

أحد الأمثلة الرائعة هو المجال الفرعي لعلم الآثار الحيوية، المتخصص بدراسة النباتات والحيوانات والبقايا العضوية للبشر في مواقع التراث الأثري. ومن خلال إشراك كل من علماء الأحياء والنباتات والحيوانات والعظام، بالإضافة إلى الخبراء في المجالات الأخرى ذات الصلة، يكتسب علماء الآثار وشركاؤهم متعددو التخصصات مفاهيم جديدة ذات مغزى حول الماضي من مواقع التراث في جميع أنحاء العالم. في العُلا، شمال غرب المملكة العربية السعودية، تعمل هذه الجهود معًا بفعالية من أجل تعزيز فهمنا للحضارات القديمة في المنطقة.

خلال الموسم الميداني 2022 لمشروع دادان الأثري، تم تحليل البقايا النباتية والحيوانية من أجل تقديم نظرة ثاقبة حول التنوع البيولوجي للمنطقة خلال فترة الحضارات الدادانية واللحيانية، مما يلقي مزيدًا من الضوء على الاقتصاد الزراعي والنظام الغذائي لهذه الحضارات وسكانها. هناك فريق متعدد التخصصات تابع لمشروع علم الآثار الحيوية في المملكة العربية السعودية: مشروع العُلا وخيبر (BAKSAU)، مموّل من الهيئة الملكية لمحافظة العُلا، ويضم علماء أنثروبولوجيا في الطب الشرعي ومتخصصين من أستراليا والمملكة العربية السعودية والمملكة المتحدة والإمارات العربية المتحدة. وكان الهدف من الموسم الأخير لهذا المشروع تنظيم ودراسة بقايا الهياكل العظمية البشرية في متحف العُلا أثناء المشاركة في أعمال التنقيب وتحليل مواد الهياكل العظمية من مواقع الدفن بمنطقة العُلا.

الأنثروبولوجيا الثقافية هي مجال آخر يوفر إمكانات غير عادية للتعاون الهادف. خلال أعمالهم، اتخذ الخبراء اتجاهًا أكثر شمولاً نحو مجتمعهم، وذلك في محاولة لتعزيز الإطار الأنثروبولوجي ضمن الأعمال الأثرية، خاصة عند التعامل مع مواقع من الماضي القريب. في قمة العُلا العالمية للآثار، سلطت الدكتورة تريسي أيرلندا، أستاذة التراث الثقافي في جامعة كانبيرا، الضوء على الأراضي التي يعمل عليها علماء الآثار في أستراليا وقد تم الاستيلاء على معظمها دون معاهدة، وبالتالي كانت الأبحاث التي يقودها السكان الأصليون خطوة حاسمة نحو نهج أكثر إنصافًا وشمولية في الدراسة الأثرية. وفقًا للدكتور أيرلندا، "الآن هو الوقت المناسب ليذهب علماء الآثار إلى المجتمع ويقولون: ما الذي تريدون أن نبحث عنه؟ ما هي أسئلتكم حول الماضي والتي تعتبر مهمة لمجتمعكم في المستقبل؟" ونتائج هذه الأسئلة ستؤدي إلى بعض أهم الاكتشافات الأثرية الحديثة.

توفر التقاليد الشفهية والممارسات الثقافية المتوارثة عبر الأجيال منظورًا فريدًا لتاريخ المكان وأهله. يمكن للباحثين من خلال دمج التاريخ الشفوي في الحفريات الأثرية، التحقق من صحة واستكمال البيانات التي تم الحصول عليها عبر الأساليب الأثرية التقليدية.

لا نستطيع القول أن علم الآثار العرقي هو ممارسة جديدة، وللحصول على فهم أكثر دقة وشمولًا حول الماضي، لا يكفي الاعتماد على بقايا المواد والعناصر المتوفرة، بل يجب أن نتخطى ذلك الأمر من خلال دمج التاريخ الشفوي في التساؤلات الأثرية، وهو نهج مبتكر يعزز فهمنا للماضي من خلال عرض مفهوم أكثر شمولية ودقة.

يضيف دمج التواريخ الشفوية إلى الحفريات الأثرية عمقًا ورؤية لا تقدران بثمن، كما هو الحال في مدينة العُلا القديمة، حيث تم إثراء التساؤلات الأثرية من خلال إشراك أفراد المجتمع المحلي الذين ينقلون معارفهم وقصصهم وتاريخهم شفهيًا وجوانب أخرى من تراثهم غير المادي. في الواقع، يعمل الرواة كمرشدين محليين في المنطقة، ويقدمون معرفة متعمقة بتاريخها الرائع.

يمكن للمرشدين السياحيين المحليين الذين لديهم معرفة بالتاريخ المحلي المتناقل شفويًا تعزيز تجربة سرد القصص للزوار، وتوفير رؤى فريدة حول التراث الثقافي والأحداث التاريخية للمنطقة، كما يدعم هذا النهج المجتمعات المحلية من خلال خلق فرص اقتصادية للمرشدين والحفاظ على التقاليد الثقافية، كما أنه يتماشى مع الممارسات السياحية المسؤولة، وتعزيز التفاهم الثقافي والحفاظ على تراث المنطقة. ومن خلال تضمين هذه الأدلة، يمكن للجولات السياحية أن تمثل التاريخ والثقافة الإقليمية بطريقة أكثر شمولاً واحترامًا.

بشكل عام، تساهم الاكتشافات التي قام بها علماء الآثار في فهم التطورات الثقافية والتاريخية، مما يسمح لعلماء الأنثروبولوجيا بتحليل وتفسير الممارسات والمعتقدات والهياكل الاجتماعية للمجتمعات السابقة.

في جهد تعاوني مبتكر، شارك خبراء العُلا أيضًا في دراسات تجمع بين علم الآثار وعلم الفلك الثقافي. يتخصص علم الفلك الأثري، كمجال فرعي من علم الآثار، بدراسة تصورات المجتمعات القديمة للسماء، وتأثير هذه التصورات على ثقافتها ونظرتها للعالم. هذا وإن موضوع الروابط المكانية بين الأرض والسماء تسلّط الضوء على كيفية مساهمة علماء الفلك في البحث الأثري بتعمق ورؤى جديدة.

أجرى فريق متعدد التخصصات من علماء الفلك والآثار والمتخصصين في التراث مؤخرًا حملة عمل ميدانية في علم الفلك الأثري في وادي العُلا ومنطقة الحِجر الأثرية، وركّز مشروع علم الفلك الأثري في العُلا، الذي بدأ في شهر فبراير من عام 2023، على دراسة الحضارتين النبطية والدادانية القديمة في الحِجر ودادان على التوالي.

غالبًا ما كانت المجتمعات القديمة على مر التاريخ تولي أهمية ثقافية ودينية عميقة للأجرام السماوية وحركاتها، لذا يمكن لعلماء الفلك الثقافي فك الرموز وفهم المجتمعات القديمة وتصوراتها للسماء من خلال دراسة ميزات التوازي المعماري وفن تشكيل الصخور والأدلة الأثرية الأخرى، ويعتبر هذا النهج في دراسة المعتقدات التي تقوم عليها الأنظمة الكونية معززًا للتفسير الأثري بحيث يقدّم فهمًا أوسع للممارسات الروحية والثقافية للشعوب القديمة.

يعد دمج التقنيات المتنوعة طريقة أخرى يستخدمها علماء الآثار لاستقطاب وجهات نظر خارجية، فقد أحدثت التطورات التكنولوجية ثورة في علم الآثار، مما سمح بجمع البيانات وتحليلها وتصورها بشكل أكثر كفاءة. يتم تطبيق تقنيات مثل الاستشعار عن بعد ((LiDAR، والمسح الضوئي ثلاثي الأبعاد، والمسح التصويري، ونظم المعلومات الجغرافية (GIS) في الممارسات الأثرية الحديثة، وهذه التقنيات تقدم إمكانات لا حدود لها من أجل فهم المشهد الأثري في المنطقة بصورة أعمق.

لقد غيرت التقنية الطريقة التي يتعامل بها علماء الآثار مع أبحاثهم وتحليلاتهم. تمكّن تقنيات الاستشعار عن بعد، مثل صور الأقمار الصناعية والمسوحات الجوية من تكوين نظرة عامة عن الموارد الأثرية في منطقة الدراسة، مما يسمح باختيار الموقع بشكل أفضل لإجراء المسوحات الأرضية والحفريات المستهدفة. تتيح تقنية ((LiDAR رسم خرائط تفصيلية وتصور الميزات الطبوغرافية، مما يؤدي إلى الكشف عن الهياكل المخفية والتغيرات التي حدثت على المعالم الطبيعية.

علاوة على ذلك، تعمل تقنيات المسح والنمذجة ثلاثية الأبعاد على تسهيل الحفظ وإعادة البناء الافتراضي للقطع الأثرية والهياكل، وهذا يسمح بتحسين التحليل والتفسير ونشر الاكتشافات الأثرية. أدى دمج التقنية في الممارسة الأثرية إلى توسيع فهمنا للتاريخ والتراث بشكل كبير.

تلعب النمذجة ثلاثية الأبعاد أيضًا دورًا في إشراك وتثقيف الجمهور حول الاكتشافات الأثرية المهمة التي عُثر عليها في العُلا. على سبيل المثال، يتم استخدام النموذج المتقدم الذي تم بناؤه لهينة -وهي امرأة نبطية من العصور القديمة تم العثور على رفاتها في مدفنٍ بالحِجر- في مركز الاستقبال في مدينة الحِجر الأثرية في منطقة التفاعل مع الزوار.

خلال جلسة معرفية في القمة العالمية للآثار، تم استكشاف الطريقة التي يمكن أن تُسد من خلالها الفجوة بين ما يمكن أن توفره التقنية وما يحتاجه علماء الآثار، وفي حين قد يرى البعض أن الاعتماد على التقنية يشكل تهديدًا لعلم الآثار التقليدي، كما تشير ريم العلوي، طالبة الماجستير بجامعة السلطان قابوس في عُمان، إلا أن التقنية لديها أيضًا القدرة على الحد من "تأثير علم الآثار على التدمير، وتمكيننا من اكتساب المزيد من المعرفة دون حتى لمس التربة".

يكمن التحدي الحقيقي، بالطبع، في إيجاد التوازن بين استخدام التقنية و"الشعور بالتربة". على سبيل المثال، يمكن لاستخدام أدوات مثل نظام تحديد المواقع العالمي (GPS) والبوصلة الدقيقة المحمولة وأجهزة قياس السرعة، أن يساعد علماء الآثار في إجراء البحوث وجمع البيانات اللازمة، دون الحاجة إلى إجراء أي تنقيب، وترك المعالم كما هي دون إجراء تغييرات عليها.

الموازنة بين الأولويات والاهتمامات المتنوعة وعلم الآثار في العالم الحديث

في العالم الحديث، يجب أن يحقق علم الآثار توازنًا بين اهتمامات كثيرة لا حصر لها، بعضها مجاور ومكمل لعمل علماء الآثار، وبعضها يتنافس بقوة مع عملهم والأهداف الأساسية للحفظ والحماية.

على سبيل المثال، مع تسارع وتيرة التحضر والتنمية في جميع أنحاء العالم -مدفوعًا بالنمو السكاني السريع- يمكن أن يكون الشد والجذب بين التراث والتنمية مثيرًا للجدل للغاية. خلال قمة العُلا العالمية للآثار، روى الدكتور أسعد سيف من الجامعة اللبنانية تجاربه مع هذا النضال في السنوات التي أعقبت الحرب الأهلية اللبنانية، والحاجة إلى مراعاة هذا الخط الفاصل بين الحفاظ على الآثار وتوسع البناء لأجل التنمية الحضرية. في هذا السياق، تبرز أهمية تطبيقات علم الآثار متعددة التخصصات والمذكورة سابقًا، من أجل التغلب على هذا التوتر القائم بين الحفظ والتنمية.

يعد إنشاء أطر قانونية قوية خطوة مهمة أخرى عندما يتعلق الأمر بالموازنة بين الحفاظ على التراث والمصالح الأخرى. في حين أن الأطر القانونية الدولية المتعلقة بالحفاظ على التراث محدودة وغير مجدية إلى حد ما من حيث الإنفاذ، وفقًا للدكتور زكي أصلان، المدير المؤسس لمكتب (إيكروم ICCROM) في الشارقة، فقد تطورت هذه القوانين على مدى العقود العديدة الماضية. منذ النصف الثاني من القرن العشرين فصاعدًا، عملت الاتفاقيات الدولية بشكل مطرد على "توسيع تعريف التراث وإدراك مفهومه"، بما في ذلك التراث المادي وغير المادي. واليوم، يشمل تعريف التراث أكثر من مجرد آثار: فهو يشمل المدن والتراث المغمور بالمياه وحتى التراث الثقافي غير المادي، وكلها تعتبر في وقتنا الحالي جديرة بالحفظ على نطاق واسع.

وكما أوضح البروفيسور توشيوكي كونو، الأستاذ الفخري في القانون الدولي الخاص بجامعة كيوشو: "من الصعب جدًا عقد اتفاقيات دولية ذات سلطة ملزمة"، ويشير أيضًا إلى أنه على المستوى الدولي، من الضروري اتباع نهج أكثر مرونة، مثل وضع خطوط إرشادية أو مبادئ أخرى يتم الترويج لها من خلال المشاركة الدبلوماسية والتعاون المتبادل.

واتفق الخبراء على أنه من الضروري الدفع باتجاه تشريع قوانين وطنية قوية، وكما قال الدكتور أصلان: "يوفر النظام القانوني الوطني الاستمرارية والثبات فيما يتعلق بحماية التراث من التعرض لتغييرات أساسية نتيجة عوامل خارجية". لكن عملية الضغط من أجل تشريع قوانين وطنية يتطلب من علماء الآثار عدم اتباع أدوارهم التقليدية، بل عليهم الدخول في عالم السياسة ووفقًا للبروفيسور كونو، "يحتاج خبراء التراث إلى القدرة على التوصل إلى اتفاق في الآراء"، أي التعامل مع مختلف أصحاب المصلحة من أجل الدفع نحو التغيير الإيجابي. وذكّر البروفيسور كونو الحضور في القمة بأن التراث "لا يوفر فقط قيمة ثقافية وتاريخية، بل قيمة اجتماعية أيضًا". ففي نهاية المطاف، لا يعد الحفاظ على التراث وحمايته أمرًا مهمًا بسبب قيمته الجوهرية فقط، بل أيضًا بسبب التأثيرات الإيجابية التي يمكن أن يحدثها على المجتمعات المحلية وعلى المجتمع ككل.

لا يمكن التقليل من أهمية الأطر القانونية القوية، ذكر الدكتور عدنان عدس، المؤسس والمدير الإداري لمركز المقصورة للتراث الحضري والمعماري، إن وضع منهجيات قانونية واضحة في بيروت مكّننا من "شمول الماضي أثناء عملية التطوير"، مما سمح بأن يكون هناك تعايش منسجم بين التوسع الحضري والحفاظ على الثقافة.

بطبيعة الحال، ليس هناك من ينكر تعقيد القوانين المتعلقة بالتراث: تدوين المناقشات بين السلطات العامة وخبراء الآثار والمجتمعات المحلية وترجمتها إلى قانون لن تكون عملية واضحة بأي حال من الأحوال. ستكون هناك دائمًا مناطق رمادية وتحديات أخرى في مجال التواصل. لكن بالنسبة للدكتور أصلان، تحتاج السياسات بأن تخضع إلى إرادة سياسية: "التحدي الحقيقي هو كيف يمكننا تحقيق ذلك بدءًا من السياسة إلى سن تشريع ووصولًا إلى الممارسة. إن هذا النهج التشاركي هو المفتاح"، وهنا يمكن لكيانات مثل الهيئة الملكية لمحافظة العُلا في المملكة تبادل خبراتها ورؤيتها مع علماء الآثار في جميع أنحاء العالم، بعد أن قامت بجمع مختلف أصحاب المهن المتعلقة بالتراث للتعايش داخل كيان واحد، والعمل معًا لتحقيق نفس الأهداف التنموية المشتركة.

كيف يمكن للمفاهيم الخارجية أن تحسّن صحة علماء الآثار؟ وكيف يمكن لعلم الآثار التقدم بالتخصصات الأخرى؟

لا شك أن العمل في علم الآثار بعيد كل البعد عن العمل في المجالات الأكاديمية التقليدية، كما يختلف بشكل كبير عن العمل المكتبي المتوسط. يمكن أن يكون العمل المخبري المعقد والعمل الميداني الدقيق في علم الآثار مرهقًا جسديًا وعقليًا وعاطفيًا. غالبًا ما يعمل علماء الآثار في بيئات وظروف صعبة تشكل ضغطًا جسديًا كبيرًا، فضلًا عن الضغط الذهني والعاطفي الذي ينتج من التعامل مع الآثار الدقيقة التي لا يمكن خسارتها بأي شكل من الأشكال، ناهيك عن التحديات الإضافية المرتبطة بالعمل في مواقع حدثت فيها مأساة أو عرّضت السكان المحليين لصدمات، وهذا بدوره لا يؤدي إلا إلى تفاقم الصعوبات التي يواجهها العاملون في هذا المجال.

خلال قمة العُلا العالمية للآثار، ناقش علماء الآثار وغيرهم من الخبراء العديد من هذه التحديات، وقدموا مجموعة متنوعة من الحلول. وعلى وجه الخصوص، أكّد الكثيرون أن إلقاء نظرة شاملة على عملهم ومكانته في العالم الحديث يمكن أن يساعد في توفير الدافع والشعور بالهدف المراد تحقيقه. كما أوضح أحد الممارسين للمهنة: "الأمر كله كان يتعلق بالدوافع بالنسبة لي، بالإضافة إلى إيجاد حاجة يمكنك من خلالها إضفاء بعض الوضوح على الموقف سواء من الناحية الأثرية أو القانونية أو التراثية أو الثلاثة معًا".

إحدى الأمور المهمة لإضفاء المزيد من الصدى والمعنى والأهمية على علم الآثار في العالم الحديث، تتمثل في رؤية الطرق التي يمكن أن يوجّه هذا العلم من خلالها العمل الجاري في مجالات وتخصصات أخرى أو في كيفية تعزيز الآفاق الاقتصادية للمجتمع المحلي.

وتساهم الأنشطة التي تشجع على السياحة -من خلال الترويج للمواقع الأثرية- في حصد إيرادات وخلق فرص عمل للسكان المحليين. يمكن أيضًا أن يؤدي الحفاظ على المواقع الأثرية والشروحات المتعلقة بها إلى تحفيز نمو الصناعات المرتبطة بالآثار، مثل السياحة التراثية والثقافية، تطوير المتاحف والبرامج الدراسية والبحوث القائمة على علم الآثار.

علم الآثار، كمجال متعدد التخصصات، لديه القدرة على المساهمة في تشكيل عدد لا يُحصى من التخصصات الأخرى. على سبيل المثال، يتضح تأثير هذا العلم في مجالات مثل الصحة العامة، حيث يمكن لفهم الأمراض القديمة والممارسات الطبية في الماضي أن يوجّه الرعاية الصحية المتقدمة في وقتنا الحالي.

علاوة على ذلك، يوفّر علم الآثار مفاهيم قيّمة حول التفاعلات بين الإنسان والبيئة، وممارسات استخدام الأراضي، والاستجابات لتغير المناخ عبر التاريخ. ومن خلال تحليل الاستجابات الثقافية السابقة للتحديات البيئية، يقدم علماء الآثار دروسًا للمجتمع المعاصر، ويمكن لممارسات استخدام الأراضي المستدامة وإدارة الموارد واستراتيجيات التكيف أن تسترشد بالمنظور طويل الأجل الذي يوفره علم الآثار.

بشكل عام، يمكن أن تساعد التخصصات المتعددة في تعزيز التقدم العلمي والأكاديمي، وتعميق فهمنا للعالم، وتؤدي في النهاية إلى حلول أكثر فعالية واستدامة للمشاكل المعقدة. والأهم من ذلك، يمكن للبحوث متعددة التخصصات أيضًا أن تسهّل ترجمة ونشر نتائج الأبحاث عبر مختلف المجالات ولعامة الناس.

ومن أجل وضع قوانين فعّالة لحماية التراث، من المهم إشراك المجتمع في عملية صنع القرار، بما يساهم في التعامل مع المجتمعات المحلية على وجه التحديد وتكوين منظور مختلف يتخطى وجهات النظر الأكاديمية أو الدولية. يعترف هذا النهج بقيمة المعرفة المجتمعية، ويعزز اتباع نهج أكثر شمولاً للحفاظ على التراث. وفي سياق الحديث عن المتاحف، علّقت ماريكا ساردار، مستشارة المتاحف والتراث، خلال القمة، قائلة: "يساهم العمل مع جمهورنا في التقدم بمجالنا، والتوسع بالدراسات في نواحٍ مختلفة".

تلعب الجهود التعاونية بين الخبراء من مختلف التخصصات دورًا مهمًا في الاستكشاف الشامل للمواقع الأثرية، كما تساهم في إطلاق تفسيرات جديدة. إنها تعزز المعرفة والفهم الشامل للماضي، بالإضافة إلى اتساع مجال الدراسات العلمية ضمن هذا العلم.

لقد فتح الابتكار متعدد التخصصات آفاقًا جديدة لفهم الماضي ومدى تأثيره على الحاضر والمستقبل، وساهمت مساعي الأفراد والمجتمعات المحلية من غير علماء الآثار، بالإضافة إلى التقنية، والمناهج متعددة التخصصات في تطوير البحث الأثري، وتوفير رؤى قيّمة في مختلف المجالات والتخصصات.

ستساهم هذه الجهود في التقدم بمعرفتنا، وتزويدنا بفهم أكثر شمولاً لماضينا وحاضرنا المشترك. ومن خلال دراسة الحضارات القديمة، يمكننا اكتساب مفاهيم عميقة تتعلق بالممارسات المستدامة والعادات الاجتماعية التي تنطبق في أيامنا.

إن إطلاق دعوة إلى استمرار التعاون والابتكار في مساعي الأعمال الأثرية المستقبلية، هو أمر في غاية الأهمية؛ ويمكن لتبني وجهات نظر من تخصصات متعددة، وإشراك أصحاب المصلحة على اختلاف مجالاتهم في علم الآثار، أن يؤدي إلى حلول مبتكرة للتحديات المعاصرة، وقد يؤدي ذلك أيضًا إلى إحداث ثورة في المشهد الأثري حول العالم، مما يكسبنا فهمًا أعمق لتراثنا البشري المشترك.